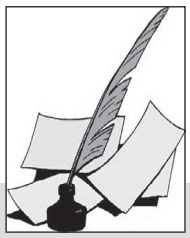

الإسلام المتسامح في المجتمع الأندلسي: صور ومظاهر

نادية اللمكي

لم تكن شبه الجزيرة الإيبيريّة الحدّ الأبعد للفتح الإسلاميّ فقط في ذلك الوقت، بل كان فتحها ونشر الدين الإسلاميّ حتّى أراضيها الشمالية بمثابة ضربة للمسيحية في عقر دارها. غيرَ أنّ المتتبع لأحداث الوصول الإسلامي إلى الأندلس لا يجد صورةً لذلك الاحتدام الشديد بين الديانتين، يعود ذلك إلى عاملين أساسيين؛ قيم الإسلام الداعية إلى احترام الآخر وقبوله، وسياسة حكام الأندلس القائمة على العدل والتسامح واحترام الهويات الثقافية، وهذا الأخير هو ما يحاول صلاح جرار إثباته تاريخيًّا في مقاله «من صور التسامح الإسلامي في الأندلس» .

يعطف بنا المقال أولاً إلى بعض من مظاهر التسامح في المجتمع الأندلسي، يبدؤها الكاتب بحرية التزاوج بين مختلف العناصر، يقول أحمد أمين في القسم الثالث من عناصر المجتمع الأندلسي: «المسلمون المولدون من تزاوج العرب بالبربر، أو العرب بالإسبانيات والصقالبة، وكان لذلك سببٌ كبير، وهو أنّ الجيش الفاتح كان من الرجال النازحين من الشرق الذين قطعوا مسافات طويلة حتى وصلوا إلى الأندلس، فكان طبيعيًّا ألا يرحل معهم عدد كبيرٌ من النساء، فاضطرتهم الحاجة إلى أن يتزوجوا من الإسبانيات أو من البربر ويستولدونهنّ»، كما يعود الأمر قبل ذلك إلى إباحة الإسلام الزواج من الكتابية، الأمرَ الذي جعل تزاوج المسلمين من مختلف العناصر أمرًا مشروعًا تحوّل إلى ضرورة حتميّة في ظل نشأة حياة جديدة ومجتمع جديد.

ومع استقرار الحكم الإسلامي في الأندلس أصبح جسر التواصل الاقتصادي والعلمي مع دول الجوار مهمًّا لبناء مجتمع متقدم، وقد ظهرت صورة التسامح الإسلامي- كما أشار الكاتب- في العلاقات الاقتصادية بين الأندلس وبين قشتالة ودول أوروبا؛ فعلى الرغم من أن العلاقات الودية لم تكن مستمرة دائمًا، غير أنّ الطرفين المسلم والنصراني التزما بمعاهدات واتفاقيات أبقتهما على علاقة طيبة في الإجمال، وكان حاكم الأندلس فيها الطرف المبادر إلى السلم. كما تظهر صورة التسامح الإسلامي في التبادل العلميّ من خلال الترجمة وتبادل الكتب بين الأندلس وما جاورها من ممالك، وهي قيمةٌ أسس لها الإسلام منذ نشأته بدعوته إلى طلب العلم، وتعلم لغة الآخر. ولأن كان الكاتب يرى في تعلم أهل الأندلس اللغة القشتالية بجانب عاميتهم صورة من صور التسامح فإننا نراها قبل ذلك ضرورة اجتماعية؛ وهي حاجة المسلم الأندلسي إلى التواصل والتفاعل مع أصحاب الأرض الأم في ظلّ عيشه بعيدًا عن الأراضي العربية.

ثم يُشير صلاح جرار إلى صورة لم تكن لتوجد في أقطار الإسلام الأخرى آنذاك، وهو تساهل بعض الفقهاء عن كثير من عادات أهل الأندلس، وتجاوزاتهم في طربهم ولهوهم، بل يرى الكاتب أن بعضهم كانت لهم مشاركات في مجالس اللهو والطرب، لكنّ أئمة المالكية، مذهب الدولة الإسلامية في الأندلس آنذاك، يرون في ذلك خروجًا عن الحق والعدل لا تسامحًا وتساهلا، فقد وردت

فتاو حول مشاركة أهل الذمة في مجالس طربهم، والاحتفال بأعيادهم، يُنكر فيها فقهاء الأندلس على العامة قبل الخاصة.

وتتسع صورة التسامح في الأندلس بوجود التعددية الدينية؛ فقد مثّل المجتمع الأندلسي نموذجًا تاريخيًا للتعايش مع إقرار الاختلاف؛ إذ لم يُجبر الآخر على قبول دعوة الإسلام، بل قبل وجوده ضمن سلسلة من الحقوق والواجبات، أتاحت بموجبها لليهودي والمسيحي العيش بتجانس مع المسلم في مجتمع واحد، ضامنةً في ذلك حريته في العبادة وإقامة الأديرة والكنائس كما تشهد بذلك سياسة حكّام الأندلس في منع هدم الكنائس، منهم عبد الرحمن بن معاوية، حين أراد بناء مسجد قرطبة وجد المسلمين يشاركون أهل الذمة في كنيستهم «فأحضر أعاجم قرطبة، وسألهم بيع ما بقي بأيديهم من الكنيسة المذكورة، وأوسع لهم البذل فيه، وفاءً بالعهد الذي صولحوا عليه؛ وأباح لهم بناء كنائسهم التي كانت هدمت عليهم في وقت الفتح بخارج قرطبة». كما تمتّعت الجماعات الدينية بحرية التنظيم المستقل والتقاضي بقانونها الخاص؛ ففي العام ٧٨٢م سمح للأساقفة بإقامة مؤتمر إشبيلية النصراني، ثم مؤتمر قرطبة النصراني في سنة٨٥٢م.

وقد منحت سياسة الحرية الثقافية، التي بُني عليها قانون الحكم في الأندلس، الفرصة لليهود والنصارى للمشاركة الفاعلة في مجالات العلم المختلفة، كما أعطت الإدارة الإسلامية في الأندلس الحق لكل مواطن كفء في تولي مناصب إدارية بصرف النظر عن خلفيته الأيدلوجية.

ومع تسارع نسق التواصل الاجتماعي والاندماج بين المسلمين وأهل الذمة تظهر لنا صورة أخرى من صور التسامح التي ذكّتها سياسة الحرية في المجتمع، وقد حاول الكاتب معالجتها باستحضار الشاهد التاريخي، وهي مشاركة المسلمين أهل الذمة في أعيادهم، واحتفائهم بها، فما هي أسباب انتشار هذه الظاهرة؟ وما دلالة ذلك؟

يبدأ الكاتب بذكر عدد من الأعياد المسيحية التي شارك فيها المسلم المسيحي وهي: عيد ميلاد المسيح -عليه السلام- وهو المعروف بعيد النيروز، والعنصرة وهو عيد ميلاد النبي يحيى بن زكريا- عليه السلام-، وخميس إبريل وهو السابق لأحد عيد الفصح. ثم ينتقل إلى صور الاحتفال بهذه الأعياد معتمدًا على ما جاء من وصف أبي القاسم العزفي في الدرّ المنظم، وابن شكوال القرطبي، وابن زرين التجيبي في كتابه فضالة الخوان، والمقرّي في نفح الطيب، وأبي العباس الونشريسي في المعيار المعرب. وقد اعتمد هذا الوصف على بيان مظاهر رئيسة منها: إظهار الاستعداد لهذه الأعياد، ووصف ما يأتي فيها من صور اللباس، وأساليب اللهو، وطرق إعداد الطعام، والتهادي فرحًا بها. كما أشارت إلى ما كان عليه المسلمون من مشاركة فيها، والتي دلّت على أن من المسلمين من يترقب هذه الأعياد، ويحتفل بها، ويشارك المسيحي الطعام فيها، كما يتهادى فيها الوزراء والأدباء وأولي الأمر، وتشارك فيها النساء.

والذي يتضح من مقال الكاتب أن احتفال المسلمين بهذه الأعياد واهتمامهم بها كان كاهتمام المسيحيين تمامًا: «...ويحتفون بهذه الأعياد احتفاءً لا يقل عن احتفاء المسيحيين بها»، كما يشير الكاتب إلى أنّ الاحتفال كان يشمل جميع الأعياد ومختلف الطبقات: «لم يكن احتفال المسلمين الأندلسيين بهذه الأعياد وقفًا على عيد بعينه، بل كان يشمل جميع الأعياد المسيحية، ولم يكن محصورًا في فئة معينة من أبناء مسلمي الأندلس، وإنما شمل معظم طبقات الأندلس...».

وختامًا يعرض لنا الكاتب أسباب احتفاء المسلمين بتلك الأعياد، ويمكن تقسيمها إلى أسباب اجتماعية، ودينية، وسياسية، وجغرافية، فأمّا الأول فتمثّل في التمازج الاجتماعي الذي حدث بداية الحكم الإسلامي للأندلس؛ فقد أدّى كثرة التزاوج بين المسلمين والأسبانيات، واتخاذ الجواري، إلى انتشار المحتفلين بتلك الأعياد في بيوت المسلمين، وانتقال الاهتمام بها من الأمهات إلى أبنائهن المولدين. وأما الدينية فتمثلت في قيم الإسلام الداعية إلى التسامح والتعايش مع الآخر المختلف، والتي غرست الطبيعة السمحة في نفوس المسلمين في الأندلس، كما إنّ أحكام الإسلام نظّمت العلاقة مع أهل الذمة، وهذا ما جعل أفق التواصل بين فئات المجتمع أكثر رحابة وسعة. وحول الأسباب السياسية فقد بنيت سياسة الحكّام المسلمين على احترام السكان الأصليين أولاً؛ بالسماح لهم بممارسة ثقافاتهم وطقوسهم، ومحاولة كسب ولائهم ثانيا؛ من خلال مشاركتهم عاداتهم وأعيادهم. وجغرافيًا فموقع الأندلس القريب من دول النصارى، والبعيد عن مراكز المسلمين العربية جعل الاحتكاك والتفاعل مع دول الجوار ثقافيًا وحضاريًا أكبر تأثيرًا. ويلخص العزفي هذه الأسباب في: «تأثير الجوار لهم، ومخالطتهم لتجارهم، ومكاشفتهم الكينونة في إسارهم».

nkha008@gmail.com